كيف نتعامل معهم؟

قال الله ربِّي جلَّ جلاله:

{ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُسَمّىً}

[غافر: 67]

الإهداء

إلى «البركة» جدّتي،

التي عندما ترحل غداً

لن تعود أبداً...

فنتشرف اليوم بخدمتها، وغسل قدميها...

إلى التي شارفت على الموت

ففعَلْنا معها ما يُفعل بالميت..

ثم أحياها الله تعالى الذي خلقها أوّل مرة.

وهي جبل الصبر

كأمَّهات عامليَّات كثيرات

عندهُنَّ قصصٌ مُبْهرات

لكن الإعلام لا يذكُرُهُنَّ،

لأنهنَّ لَسْنَ من سيدات المجتمع المخملي «الراقي» الذي يَرْطن بالأجنبية، ويُجيد العروض الفنيَّة!

11 شهر شعبان المعظَّم خضرة

كلّنا لأرذل العمر

هي سُنَّة الحياة

نُساق إليها سوقاً

شِئنا أم أبَيْنا

قبلِنا أم لم نقبل...

إنَّها الشيخوخة أو كِبرُ السن أو ذو الشيبة، أو تقدُّم العمر أو ضَعْفٌ بعد قوَّة... سمِّها ما شئت!

يقول سبحانه: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ *} سورة الروم: الآية 54. .

{وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَي لاَ يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ *} سورة النحل: الآية 70. .

فَمنْ لم يُتَوفَّ منَّا ... سوف يُردُّ إلى أرذل العمر:

أنا... كاتب هذه السطور

وأنت... ناظر هذه السطور

كما الآن جدُّك وجدتُّك

ثم أبوك وأُمّك

يأتي دوري ودورك...

وهكذا...

إبني وإبنك

وابنتي وابنتك...

إنَّها السبيل لكل العالمين

مَنْ مضى منهم... مضى كذلك

ومَنْ يأتي منهم... يمضي كذلك

ولن ينأى عن هذه السبيل أحد.

فقد خلق الله تعالى الإنسان فسواه، وجعل له مراحل تتفاوت فيها قدراته ولكل مرحلة من عمره خصائصها وميزاتها التي تميزها عن غيرها من المراحل، يقول سبحانه مذكراً بهذه المراحل: {يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا} سورة الحج: الآية 5. .

توقير كبار السن في الإسلام

وأكد الإسلام على احترام المسن والشيخ وذي الشَّيبة المسلم... من باب التعظيم والتبجيل.

وخصَّ من هؤلاء الوالدَيْن عندما يكبران:

{وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا *} [سورة الإسراء: 23] .

بل جعل الإسلام أحكاماً فقهية خاصة بالمسنين ، رعاية لهم وشفقة بهم وحرصاً على كرامتهم من عدَّة جهات:

ففي الصلاة شرَّع الإسلام تشريعات خاصة للمتقدمين في السِّن من حيث قيامهم أو وقوفهم أو صلاة الجماعة... حتى أمرنا بالصلاة على مقياس أضعفهم، فنُخفِّف من صلاة الجماعة، ونحن بالمئات أو أكثر، رعاية واحتراماً وترفُّقاً بكبارنا!

وفي الصوم أجاز لهم الإفطار... مع تفاصيل..

وأما الحج فهناك مئات الأحكام الشرعية الخاصة بهم، من أصل تكليفهم بالحج، إلى طوافهم وصلاتهم والاستنابة، إلى سعيهم بين الصفا والمروة، إلى تقديم بعض الأعمال، إلى المبيت فرمي الجمرات... رأفة واعتناء ومسحة رحمة من الله الحنَّان، تبارك وتعالى.

وهذه كلها أمثلة فقط... ناهيك عن أحكام عامة يأتي التطرق إليها لاحقاً.

والمتأمّل في مجمل هذه الأحكام يرى مراعاة للمسنين جسمية وعقلية وذهنية ومعنوية ونفسية واجتماعية...

فالشيخوخة ليست عمراً زمنياً فقط بل هي أيضاً عمر عقلي أيضاً.

هناك أزمة عالمية

وفضلاً عن رأي الإسلام، وسلوك المجتمعات، وتوجُّهات الحضارات، القديمة منها والحديثة، الشرقية منها والغربية... فإنَّ أزمة عالمية باتت ظاهرة اليوم، هي أزمة «طبقة» المسنِّين ، وخاصة فيمَنْ يُسمُّون أنفسهم بالعالم الأول أو المتحضر، وبالأخص أوروبا الغربية وكندا وأميركا وروسيا ودول أُخرى.

فيُستنفر هؤلاء لمعالجة المشكلة بجملة إجراءات بعضها نجح وبعضها فشل وبعضها جُمِّد... مقتصرين على النواحي المادية وما تيسَّر من خدماتية وصحية... ومن أين لهم الرحمة والحنان والحب اللانهائي الذي أوصى به الإسلام؟!.

فنظام التقاعد، كما التأمينات الاجتماعية، وهي أُمور هامة جداً، لم تحل المشكلة... وإعلان الجمعية العامة للأُمم المتحدة عام 1982 بضرورة الاهتمام ورعاية المسنِّين... ومن ثم تبنِّيها عام 2002 في مدريد خطة لمعالجة مشاكلهم في العالم... كلها بقيت قرارات نظرية ليس لها حظ وتطبيق... ليس في العالم ككل، بل في بلدانهم أيضاً.

فيا تبارك الله!

ماذا لو طبق المسلمون تعاليمهم في كبارهم، ونشروا ذلك في وسائل الإعلام، وعرَّفوا الناس بها ، فإنَّ مجتمعات بكاملها سوف تتغيَّر، أمام المبادرات الفردية والجماعية؟

إنَّ قِصصاً لا تنتهي لو أردنا سَرْدها حول وضع المسنين ووحدتهم في العالم الغربي ، وكم وُجدت جثث أو حتى هياكل عظمية، تُوفي أصحابها منذ سنين، دون أن يتفقدهم

أو يسأل عنهم أحد!

أهؤلاء، وهم بمئات الآلاف سنوياً، ليس لهم أهلٌ وأولاد وأقارب وأرحام؟

قصتان... وعليهما قِسْ

لا شك بعظيم الفرق في التعامل مع المسنين بين:

1 ـ المجتمعات الغربية الحديثة، أميركية كانت أو أوروبية أو أسترالية أو كندية...

«فالغربية» هنا، هي الطريقة والنهج والفلسفة والنظرة للأين والكيف واللماذا...

2 ـ المجتمعات الشرقية عامة، هندية كانت أو صينية أو يابانية أو آسيوية عامة...

أو إسلامية، من منطلق التصنيف الشائع أو الفني.

وإلاَّ... فإنَّ إسلامنا يعلو ولا يُعلى عليه، ولا نرضى إلاَّ منه وإليه... سبحان ربنا وحنانيه.

الفرق بين الحضارتين الشرقية والغربية واضح، والكلام والأسباب والمنطلقات والممارسات والمنقولات كثيرة جداً، وهناك مجلَّدات ضخمة حولها... لكنَّنا، في كل هذا الخِضم، نقتصر على أسطر قليلة... في قصتين تختصران آلاف الصفحات!

القصة الأولى:

شاب مسلم يسكن «باريس»، يرى فرنسياً مُسناً يحمل أغراضاً وعكازاً ويهمُّ بعبور الطريق، فيقترب منه ويحمل عنه متاعه، ويعبر برفقته إلى الرصيف المقابل، ويُصرُّ على مرافقته إلى منزله في الطابق الثاني، وحتى الباب.

المسنّ الفرنسي وبعدما رأى من حُسن المعاملة والمبادرة والأدب والصبر والحرص يسأل الشاب:

هل أنت مسلم؟

يقول الشاب:

نعم، والحمد لله.

فيردُّ الفرنسي:

نعم، قلت ذلك في نفسي... هذه أخلاق المسلمين... لقد قضيت فترة كبيرة من خدمتي العسكرية في الجزائر.

هذه هي أخلاق المسلمين.

القصة الثانية:

قبل 5 سنوات من كتابة هذه الكلمات أصابت دولة أوروبية موجة حرّ شديدة ونادرة، وبما أنَّها غير مألوفة ولا منتظرة، فقد كانت الاستعدادات غير كافية، ممَّا أوقع ضحايا كثيرين.

وفي فرنسا وحدها كانت نتيجة الموجة 16 ألف حالة وفاة بين المسنِّين!

طبيب قريب لكاتب هذه السطور، مقيم في فرنسا حدَّث فقال:

ليست المشكلة في نفس الطقس، فهناك كثير من البلدان درجات الحرارة فيها مرتفعة...

المشكلة في عدم الاستعداد والتواصل العائلي، فبعض المسنِّين «المنقطعين» أو المقطوعين (المرض النفسي الأول في فرنسا هو المعاناة من الوحدة) لا يجدون مَنْ يُسعفهم بخدمة بسيطة في المطبخ أو الحمام أو حتى تناول حبة الدواء أو حتى تبليل أجسادهم بالمياه أو بعض الإعانات الفورية الضرورية أو قياس ضغطهم أو حرارتهم...

أصابهم الوهن، وتعبوا وسقطوا وكان يُمكن إنقاذهم بسرعة...

لولا!!!

وكل هذا، ولم تكتمل القصة!

المفاجأة أنَّ المسنين المتوفين الذين لم تتَّسع لهم برادات المستشفيات نُقلوا إلى غرف وشاحنات مبرَّدة ريثما تتم إجراءات التسليم والدفن.

ومرَّت أسابيع على أكثرهم دون أن يسأل عنهم أحد!

فاضطرت السلطات الفرنسية أن تبادر إلى ذلك بنفسها!

حدث ذلك في 2003 من القرن الحادي العشرين.

إجلال الشيخ الكبير في الإسلام

وبعدما تحدَّثنا عن سُنَّة الحياة في «أرذل العمر» والأزمة العالمية... وحتى لا نطيل نشير إلى بركات دين الإسلام في شأن إجلال الكبير.

قال رسول الله : «بجِّلوا المشايخ فإنَّ من إجلال الله تبجيل المشايخ».

وعن عبد الله بن سنان قال: قال لي أبو عبد الله : «إنَّ من إجلال الله عزَّ وجلَّ إجلال الشيخ الكبير (وفي نص: إجلال ذي الشيبة المسلم)».

وقال : «لَيْسَ أحدٌ أفْضلَ عِنْدَ الله مِنْ مُؤْمنٍ يُعمَّرُ في الإسْلام لِتسْبيحه وتَكْبِيرِهِ وتَهْلِيلِهِ».

بل حتى صديق الأب له نصيب من الاحترام والعناية قال النبي : «من البر أن تصل صديق أبيك».

وفي خطورة المهمل المقصِّر ورد عن أحمد بن محمد رفعه قال: قال أبو عبد الله : «ليس منَّا من لم يوقِّر كبيرنا ويرحم صغيرنا».

وأما المستخف فله عقاب في الدُّنيا، ومن نفس النوع فعن عبد الله بن سنان، قال: قال لي أبو عبد الله : «من إجلال الله عزَّ وجلَّ إجلال المؤمن ذي الشيبة ومن أكرم مؤمناً فبكرامة الله بدأ ومن استخف بمؤمن ذي شيبة أرسل الله إليه من يستخف به قبل موته».

البركة في كبارنا

علينا أن نعلم، وبكل واقعية، أنَّ هناك بركة مع كبارنا، وهي من النوع الذي لو فقدناه... ما وجدناه.

فهناك أُمور في الدُّنيا يُمكن تعويضها ولو جزئياً... لكنَّ بركة الكبار في بيوتنا لا

عودة لها أبداً.

فَلْيَحْمد الله سبحانه مَنْ كان عنده قريب ينظر إليه ويخدمه، وليعتبر ذلك نعمة عظيمة ... يرجوها كثير من الناس، فلا يُحصِّلوها.

وهذه جملة من البركات نتصفحها بعيوننا فرحين شاكرين:

قال : «إنَّ من إجلالي توقير الشيخ من أمّتي».

وقال : «ما أكرم شاب شيخاً لسنّه إلاّ قيّض الله له مَن يكرمه عند سنّه».

قال : «البركة مع أكابركم».

وقال : «الخير مع أكابركم».

وقال : «ليس منَّا من لم يرحم صغيرنا ويعرف شرف كبيرنا».

وقال : «ليس منَّا من لم يجل كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا حقه».

وقال : «البركة في أكابرنا فمن لم يرحم صغيرنا ويجلُّ كبيرنا فليس منَّا».

وقال النبي : «أمرني جبريل أن أقدم الأكابر».

توجيهات التعامل مع المسنين

هذه جملة من التوجيهات المفيدة والعملية في التعامل مع الكبار بشكل عام، وتكمن أهميتها في ضرورة نشرها عبر وسائل الإعلام والتواصل لتُصبح جزءاً من حياتنا وشخصيتنا.

نذكر منها ما تيسَّر باختصار:

1 ـ تقديم وإظهار الحنان والرعاية لهم، وجعلهم يحسِّون بها ، لأنَّهم بحاجة فعلية إلى ذلك، وإنْ أَبَتْ كرامتهم وعمرهم طلبها.

2 ـ الصبر على أسئلتهم وطلباتهم وفي أي وقت.

3 ـ حسن الاستماع إليهم إذا أرادوا الكلام عن ماضيهم وتجاربهم و«تاريخهم» وخبراتهم، فهم يستمتعون بذلك، بل ذلك جزء من الأُنْس لهم، وقد يكون علاجاً في

كثير من الأحيان.

4 ـ عدم الإلحاح عليهم في إنجاز أي عمل يقومون به، أكان شخصياً لهم أو مطلوباً منهم.

5 ـ ترك مؤاخذته أو معاتبته على تقصيره أو «برودته» أو قلّة حماسه لأمر ما... خاصة إذا كان ذلك ناتجاً عن قصور في السمع أو البصر أو الهمَّة أو النشاط أو القوَّة.

وإذا طال بنا العمر، سنصبح مثله، ونتصرف كتصرفه.

6 ـ أي اختلاف معه ولأي سبب... لا يعني الاصطدام.

7 ـ تقديمهم في كل الأُمور ، في المجالس والمناسبات والمشي والكلام والطعام والشراب، وفي إنجاز المعاملات المختلفة، وفي كافة وجوه الإكرام.

حيث أمر النبي أن يُبدأ بالكبير... فقال: «ابدأوا بالكبراء ـ أو قال ـ بالأكابر»...

8 ـ تحذير أي كان من الاستخفاف بهم مهما كان موقعه أو سلطته أو عمره... وبالأخص الأخص، من الأصغر منهم سناً.

روي عن رسول الله أنَّه قال: «ثلاث لا يستخف بهم إلاَّ منافق، ـ وذكر من جملتهم ـ «ذو الشيبة في الإسلام...».

9 ـ الحياء منهم مطلوب دوماً: في اللفظ والفعل والشكل...

توجيهات في التعامل مع الأب والأُم والجد والجدَّة خاصة

إضافة لِما تقدَّم، هناك أُمور يجب أن تُراعى بشكل خاص مع الآباء والأُمهات، ويتشرَّبها الأطفال منذ بداية وعيهم وإدراكهم، لتكون مُكوِّناً لمسلكهم في حياتهم الاجتماعية.

ومن هذه الأُمور باختصار.

1 ـ إذا دخلت عليهم أو على أحدهم فكن البادىء بإلقاء التحية عليهم ، متبسِّماً... وأما إذا كنت لا تراهم يومياً فصافحهم وقبّلهم وقبِّل أيديهم.

2 - إحرص قدر الإمكان على عدم قيامهم لعمل ما بأنفسهم أثناء وجودك معهم وأنت جالس تنظر إليهم أو تتلهَّى بما ليس ضرورياً... إلاَّ إذا كانت رغبتهم في ذلك.

3 - إذا جلست معهم إلى مائدة الطعام فابدأ بالسَّكب في صحونهم أولاً وقرِّب إليهم البعيد ممَّا يرغبون في أكله قبل أن تبدأ بنفسك.

4 - لا تدعهم يقومون عن مائدة الطعام لفتح الباب أو استقبال الزائرين أو للرد على الهاتف أو لإحضار شيء وتبقى جالساً.

5 - إذا أردتم مغادرة البيت لرحلة أو نزهة أو زيارة...، فكُنْ أنت الذي يحمل الأغراض ، خاصة الثقيلة منها، كذلك لا تدعهم ينتظرونك خارجاً في الحر أو البرد الشديدين فيما أنت ترتدي ثيابك أو تُسرِّح شعرك أو تتحدث مع أصدقائك.

6 - لا تضطرهم لِفعل أمر يكرهون القيام به ولا تثقل عليهم بما لا يطيقون.

7 - لا تصرخ في وجوههم ساخطاً ، ولا تَرْم ما في يدك غضباً أمامهم كما ترى في كثير من الأفلام، بل لا تقل لهم «أُف».

8 - لا تخاطبهم بصيغة الأمر، أو بلهجة المستفهم الموبخ كأَنْ تسأل:

لِمَ تأخرتِ عن كي الملابس؟ أو أَلمْ تغسلي بعد؟ أو كان يجب عليكِ أن تفعلي ذلك... واستبدل كلَّ ذلك بقولك يا ليتك فعلتِ كذا... كنت أتمنى كذا... توقعت أن أرى... ما رأيك لو نفعل كذا... وهكذا.

9 - افتتح الحديث بما يرغب الاطمئنان عنه ومعرفة أخباره أو ما يسره سماعه.

10 - كن أنت الذي يخرج أخيراً من المنزل، ويتفقَّد إحكام غلق الأبواب...

11 - إذا اعترضته ضائقة مالية وكنت ميسور الحال فمن الواجب عليك أن تبادر فوراً لقضاء حاجته كي لا يضطر للطلب منك فضلاً عن غيرك.

أي، وبشكل عام، استبدال لغة التوبيخ والعتب بالتمني والترجي وما يفيد التلميح والإشارة للطلب دون أذيَّة.